مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (4)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (4) 2016

مقدّمة القصيدة في شعر المتنبي

الدكتور حسّان الحسن*

(تاريخ الإيداع 14 / 3 / 2016. قبل للنشر في 21 / 8 / 2016)

□ ملخّص □

كما هو معروف أنّ المتنبي شاعر ملأ الآفاق أحدوثةً في شعره وجلالاً في إبداعه وفنّه ، فهو ما يزال ينبوعاً ثرّاً ينهل منه الدارسون لترتوي أقلامهم بحثاً وتنقيباً عن آثاره الإبداعية ليكشفوا سرّ ذلك الإبداع وما ينطوي عليه من مشاعر نفسيّة خلّاقة جعلته يصوغ شعره بفنيّة جماليّة رائعة ، ممّا أكسب اللّغة العربية تعاملاً خاصّاً في استخدام الكلمة، ولعلّ المتنبي يكاد ينفرد في ذلك الاستخدام حتى أصبح ذلك الإبداع أيضاً متبادلاً بين الشاعر واللغة ، فكانت الأداة الحرة المطواعة بين يديه كما أنّه أحبّها فبثّها مشاعره وانفعالاته ،فأحسّت به حتى منحته طاقة عظيمة من التي يحملها.وما أن يقرأ الدارس تلك اللّغة حتَّى يشعر بجاذبيتهاالمؤثّرة في تطوّرالشعر وتجديده إبداعاً وفنّاً وفكراً عبر العصور والتاريخ.لقد شارك المتنبي من سبقه من الشعراء في ولوج الأبواب الشعريّة المعهودة ، من مدح ورثاء ووصف وهجاء وفخر وغزل وما إلى ذلك 0واتّسم شعر المتنبي بميّزات أطوار حياته ، وكان سجلاً لمختلف ما تقلّب عليه من أحوال نفسيّة ، حافظاً على صور ثورته وهيجائه، وطموحه وحرمانه.

الكلمات المفتاحيّة : مقدّمة – شعر – صياغة .

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين– اللاذقية – سورية

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (38) العدد (4)2016
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (38) No. (4) 2016

The poem introduction in Al-Mutanabbi's Poetry

Dr. Hassan Al-Hasan*

(Received 14 / 3 / 2016. Accepted 21 / 8 / 2016)

□ ABSTRACT □

Al-Mutanabbi, as we all know, is a poet who filled the world with poetry providing a tale and reflecting the sublimity of creation and art.He is still like a torrential spring from which scholars drinkn to quench the thierdt of their pens in search of his creative works, trying to reveal the secret of that creation which involves inventive psychological feelings that made him form his poetry with wonderful aesthetic artistry, something which, gave Arabic a particular dealing with the word use which, perhaps, is almost unique to Al-Mutanabbi so that this creation which remained constanly with him till he became famous for it as if it had been his identification card he held. No sooner does ascholar read that language than he sees Al-Mutanabbi's ID Card which has later became the ID card of Arabic poetry, affecting its advance and restrationcreativey, aristically and intellectually throughout ages and history.

Keywords: introduction - poetry-Wording

* **Associate Professor, Depatment of Arabic- Faculty of Arts – Tishreen Universty- Lattakia- Syria**

مقدّمة :

لعلّ قراءة واعيةً متأمّلة لشعر المتنبي تجعلنا نجد ما يميّز شعره عن غيره من خلال مقدّمات قصائده التي تختلف عن مقدّمات سابقيه من الشعراء في أنّها تصوّر حياته والألوان المختلفة التي تلوّنت بها نفسيّته على مدى أطوارها وتعدّدها، ولهذا يرى الدكتور حسين عطوان أنّ " الشعر العربي لم يظفر بشاعر جعل فواتح قصائده ترجماناً صادقاً لحياته على طولها وتقلّبها ، وصورة واضحة دقيقة لنفسيّته على تباين إحساساتها ووجدانها".[1]

لكنّه فيما نرى لم يتعمّق في دراسة مقدّمات قصائد المتنبي ليرى ذلك الترجمان الذي عبّر به المتنبي في مقدّمات قصائده ، ونحن نعلم أنّ الشعراء في العصور التي سبقت المتنبي استهلّوا أشعارهم بمقدّمات تقليديّة وبمقدمات قد تواكب العصر، لكنّهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه المتنبي حيث جعل مقدّماته لساناً ناطقاً بآلامهم وآمالهم التي تلاقت مع مَثَلِهِ الأعلى من آلام أمّته وآمالها؛ على حين كان الشّعراء يستشعرون زعماء الأحزاب ويدعون لهم ويدعون لأفكارهم ، وقد أشار الدكتور حسين عطوان إلى أن عبد الله بن قيس الرقيات قد اتّخذ جانباً من مقدّماته الطلليّة للتعبير عن مذهبه السياسي ، كما اتّخذ جانباً من مقدّماته الغزلية للتعريض بخصومه السياسيين،[2] ولذلك فمن يتبع شعر المتنبي يجد أنّه عاش لغير ما عاش له الشعراء المدّاحون ، فقد عاش لآمال كبار ملأت عليه نفسه وحياته ، وظلّ يسعى من أجلها ويعمل لها في شبابه وفي كهولته ، ولم ينس نصيبه من الحبّ والغزل لكنّه الحبّ لا كما فهمه الآخرون على أنّه حبّ مبتذل أو رخيص ، وإنّما الحبّ الذي يشعره بسموّه وكرامته ، والحبّ الذي يجعل له قلباً راقياً كأولئك الذين تصوّفوا بحبهم صدقاً وإخلاصاً ، ولهذا كلّه كانت مقدّمات قصائد المتنبي من نوع آخر تتلوّن بألوان زاهية عجيبة بحيث تنسيك ما فيه من قراءة شعره، فأهميّة هذا البحث تكمن في الإشارة إلى أنّ هذه المقدّمة تحمل هويّة التراث العربي الأصيل رافعةً راية الحداثة في الشّعر العربي ، فهي وإنْ كانت مقدّمة تحمل جوهر التراث إلّا أنّها حديثة في معانيها وتنوّعها الذي يضفي رونق الجمال في الإبداع الشعريّ ، فتوخّينا منهجاً وصفيّاً من جهة ومنهجاً تحليليّاً من جهة أخرى كي نبني جسراً يصل بين القديم والحديث ، وخاصّةً أنّ العصر العبّاسي ظهر فيه تيّاران : تيّار الحداثة وتيّار القديم ، فكان المتنبي وهو في القرن الرّابع الهجري ينهض بالمقدّمة لتكون مواكبةً للحداثة التي واكبها الشّعر في ذلك العصر ، وهدفنا من وراء ذلك كلّه الكشف عن الإبداع الشعريّ عند المتنبّي من خلال مقدّمة القصيدة في شعره بتنوّعها وبأصواتها المرتفعة حيناً والمنخفضة حيناً أخر ، وهي وإنْ كانتْ كذلك فهي تعبّر عن صوت المتنبّي الواحد الذي يحمل صوت الإنسان الثائر، الحزين ، الحكيم ، العربي الأصيل، وقد اخترْتُ بعضَ قصائد مقدّماته العديدة للإشارة إلى ما نصبو إليه خوفاً من الإطالة في البحث ، ونحن بحاجة إلى دراستها أعمق من ذلك بكثير ، على أمل في أنْ يكون هذا البحث حافزاً للوقوف عند هذه المقدّمات كلّها ودراستها بشكلٍ أعمق ممّا جئنا به ، فهي تحتاج إلى كثيرٍ من التذوّق الجمالي والحديث عن فنّيّة المتنبّي وإبداعاته من خلال مقدّماته وإنْ شاء الله سوف نتناول هذه الدّراسة في بحوثٍ قادمة على فترات متلاحقة تفادياً من الإطالة ، وسوفتصل إلى الإشارة للإبداع المتفرّد عندهُ.

أ – المقدّمات الثوريّة :

من المعروف أنّ الواقع النّفسي العام في عصر المتنبي لم يكن غير جزء من الحياة التي يعيشها الناس كافّة ، ولم يكن غير امتداد لعصر الانحلال والتمزّق الاجتماعي الذي قبله ، فمنذ أن استقرّت الحياة بالدولة العباسية الجديدة

---

[1] د. حسين عطوان ، مقدّمة القصيدة العربيّة في العصر العبّاسي الثاني–دار الجيل – بيروت 1982 – ص 289 .

[2] د. حسين عطوان ، مقدّمة القصيدة العربيّة في العصر الأموي– ص 192 .

ونشأت مشاكل جديدة سواء أكانت في الحضارة أم في الفكر أم في السياسة من حيث التقاء الأمة العربية بالأمم الأخرى، فأخذت تكبر وتتضخّم حتى تحوّلت إلى دوّامة هائلة تدور كما تدور الرحى السريعة وتطحن ما فيها باستثناء عدد قليل من الأفراد .[1]

ونتيجة لتلك الظروف السيئة عاش المتنبي منذ أوّل عهده ثائراً على الزمان ، ساخطاً على حكّامه برماً بأهله ، فقد فتح عينيه على غارات القرامطة الدامية والمدمّرة على الكوفة مع الحكام المستبدين بأمورها ، وإذا هو يتعلّق بأمل واحد وهو النهوض بأمته من عثرتها وتخليصها من الآفات التي انتشرت بينها ، فظهرت التوترات النفسية بثورة جامحة في حياة المتنبي ، فراح يستهلّ قصائده في هذه الفترة بمقدّمات تستنهض نفسه وتحفّز همّته ، بل كلّها استنهاض لأبناء أمته وحضّهم على الثورة والانتفاض على الواقع وما نلاحظه في مقدّمات القصائد التي قالها في مدح علي بن إبراهيم التنوخي والتي لم يفتتح بمثلها أية مدحة سابقة فقد استقبله التنوخي خير استقبال ومع جماعة قومه ورضوا عنه كلّ الرضا ، ووجد فيهم العرب الأصلاء الذين يعيشون بعروبتهم ويثورون لكرامتهم وإذا هم يبوحون له كل ما يطوونه في نفوسهم من السخط والغضب على الإخشيديين وغيرهم ، وإذا هو يصارحهم ويفتح نفسه لهم كاشفاً عمّا يعتمل فيها من الثورة .[2]

ونحن إذا قرأنا ميميّته التي مدح بها علي بن إبراهيم التنوخي . والتي أشرنا إليها. نجده يبيّن لنا ما تردّت إليه الأمّة العربية من تحكّم الرقيق بها وسيطرتهم عليها ، ولهذا يرى الدكتور طه حسين أنّ المتنبي في هذه القصيدة يذكّرنا بشاعر قرشي قديم جاهد مع الزبيريين حتى انهزموا وهو عبيد الله قيس الرقيات الذي كان يأمل أن تجتمع ملّة قريش ويعود ملكها قوياً متيناً[3]، ولذلك لم يرَ ضيراً أن يلجأ إلى بني أمية ويمدحهم وينعم بجوار أميرها عبد العزيز بن مروان، وهذاهو حال المتنبي الذي جاهد بلسانه وعرّض نفسه للخطر ، ولعلّه جاهد بسيفه ونفسه ثم انتهى أمره إلى السجن، فلمّا خرج منه قضى بعض الدهر مشرّداً بائساً ، لم يلبث أن تعزّى عن هذا كلّه حين ظنّ أنّه وجد أميراً عربياً يحيي الأمل ويردّ إلى النفوس شيئاً من الرضا والثقة [4]، ذلكم الأمير هو سيف الدولة؛ أمّا مقدّمة القصيدة الميمية فهي:

أحقٌّ عافٍ بدمعك الهممُ	أحدثُ شيءٍ عهداً بها القِدَمُ
وإنّما الناس بالملوك وما	تفلح عرب ملوكها عجمُ
لا أدب عندهم ولا حسب	ولا عهود لهم ولا ذمم
في كل أرض وطئتها أممٌ	ترعى بعبد كأنّهم غنمُ
يستخشنُ الخزّ حين يلبسه	وكان يبرى بظفرِهِ القلم[5]

المتنبي في هذه القصيدة يجسّد نفسيّته الثائرة فهو يكشف النقاب عن سر الظلم الذي يعانيه المجتمع ، وهو بهذه

---

[1]ينظر: محمد شرارة ، المتنبي بين البطولة والاغتراب– جمع وتحقيق : حياة شرارة ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 ، 1981م، ص 201 .

[2]ينظر: د. حسين عطوان ، مقدّمة القصيدة العربيّة في العصر العبّاسي الثاني، ص 294 ، وانظر : شوقي ضيف : الفنّ ومذاهبه في الشعرالعربي، دار المعارف، بمصر، ط1، د.ت ، 129.

[3]د.طه حسين: مع المتنبي، دار المعارف، بمصر، د.ط، د.ت، ص87

[4]د. طه حسين ، مع المتنبي ، دار المعارف ، مصر ، ط 11 ، من دون تاريخ ، ص 145 .

[5]المتنبي ، الديوان ، شرح العكبري ، تحقيق : مصطفى السقّا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، ج4، ص58.

المقدمة أيضاً يريد أن ينهض بالمجتمع ليثور ضد الواقع السياسي والاجتماعي ، كأنّ المتنبي تثقّف بثقافة القرن الحادي والعشرين ، ولم يلتفت إلى ما كان يلتفت إليه الشعراء من وقوف على الديار أو بكاء على الأطلال فهو يلحّ على أنّ صلاح الأمة من صلاح ملوكها ولذلك راح يعرض سيّئات أولئك الملوك ليبعث في نفس المتلقّي شعوراً بالاشمئزاز منهم لأنّهم لا حسب ولا نسب لهم ولا أدب لهم يفتخرون به ، وهم حفاة عراة وقد جاؤوا ليحكموا العرب أصحاب العز والكرامة ؟؟

وإذا مضينا إلى قصيدة أخرى (سنأتي عليها بعد قليل) نجد هذا النفس الثوري الحارّ يطالعنا في مقدّمتها وشعوره بالثورة جرَ له السجن لم يزد إلا صبة في الموقف وضراوة في نقد الواقع الذي يعيش فيه فما إن أطلق سراحه حتى عاد أسداً كاسراً ولكنّه يكفّن آلامه في قلبه ، فهو غريب مشرّد لا يكاد يستقرّ في مكان حتى يزعجه الخوف والفزع ، وهو فقير معدم لا يجد ما يرضي حاجة عقله وقلبه وعواطفه [1] ، وتسوقه الأقدار إلى أن حطّ به الرحال عند بدر بن عمّار والي طبرية فلم يلقَ عنده ما يرضيه فذهب متأسّفاً على وقته الذي هدره معه ، فهو يريد ثورة عارمة تخلّص المجتمع من الظلم والإهانة فراح يمدح أبا الحسن علي بن أحمد الخراساني الذي أقام عنده جبل جرش بعد أن ترك بدر بن عمار، يقول:

لا افتخار إلا لمن لا يضام ... مدرك أو محارب لا ينام
ليس عزماً ما مرض المرءُ فيه ... ليس همّاً ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيـ ... ـه غذاء تضوي به أجسام
ذلَّ من يغبط الذليل بعيشٍ ... رُبَّ عيش أخف منه الحمام
كلُّ حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجئ إليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام
ضاق ذرعاً بأن أضيق به ذر ... عاً زماني واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي ... واقفاً تحت أخمصي الأنام
أقراراًالذّقوق شرار ... ومراماً أبغى وظلمي يرام
دون أن يشرق الحجاز ونجد ... والعراقان بالقنا والشآم [2]

نرى أنّ المتنبي في مقدّمة قصيدته ينكر على ذاته قبوله الذلّ والهوان ، فإنّه يعظّم من شأن آلامه وأحزانه وخيبة أمله لأنّه أحسّ بالندم فراح يحاسب ذاته ويعاقب نفسه على ضعفها ، ويرى أنّه ليس من حقّها أن تتفاخر ، فالفخر يكون
لمن يناضل لبلوغ غايته وليس لمن يخنع للذلّ والهوان ، ويرى أنّ الاعتداد بالنفس يكون بالعزيمة والصبر ، فليس لنفس أن تفخر وهي خانعة عاجزة عن تحقيق غايتها ، ويمضي المتنبي في تقريع نفسه ولومها مبيّناً أنّه لا خير في حياة ذليلة ، فالموت في العزّ خير من العيش في الذلّ ، وما يزال يقلّب المعاني في داخله ثم يرفعها إلى عقله ومن ثمّ إلى منطقه الصوري فقال :

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

---

[1] د. طه حسين ، مع المتنبي ، ص 87- 106 . وانظر : د. محمد زكي العشماوي : موقف الشعر ، دار النهضة ، ص 100-101 .
[2] الديوان ، 92/4 .

وتطول محنة الشاعر بعد خروجه من السجن وتتعاقب عليه المحن بعد أن غادر بدر بن عمار ، وتشتدّ به الخطوب، ولكنّ القدر يشاء أن تنجلي الغيمة السوداء فتتذلّل بعض العقبات بعد أن تغيّر وجه السياسة في بلاد الشام والعراق ، فيأخذ المتنبي بالتقرّب من الإخشيديين وعمّالهم من أصحاب المناصب المدنية والعسكرية فيها [1]، وكان لهذا أثر كبير في نفسيّة المتنبي في أعماقها فإذا به يستردّ عزمه وإصراره على الثورة ضد الحكّام الظالمين ، وهذا ما نلمسه في مقدّمات قصائده في هذه الفترة [2].

ومن مقدّمات القصائد الثورية قصيدة قالها في مدح علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي ؛ حيث يطالعنا في مقدمتها بأنغام مدوية وصيحات عالية تصدر عن نفس أبيّة تأبى الذلّ والهوان ولا تخلو من رأيه السديد الذي بناه عن تجربة فاعلة في الحياة ، فيقول:

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً ، وما قولي كذا ومعي الصبرُ
وأشجع منّي كلّ يوم سلامتي وما ثبتت إلّا وفي نفسها أمر
تمرّست بالآفات حتى تركتها تقول : أمات الموت أم ذعر الذعر
وأقدمت إقدامَ الأبيّ كأنّ لي سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر
دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبنّ المجد زقّاً وقينةً فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويّاً كأنّما تداول سمع المرء أنمله العشر
إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقصٍ على هبة فالفضل فيمن له الشكر [3]

وهنا نجد المتنبي يصوّر صبره وسلامته التي هي أشجع منه وذلك لأمر عظيم ، فهو ولو كان وحيداً فليس وحيداً بل معه الصبر الذي يزيده قوّةً وصلابةً ، حتّى إنّ المصائب والآفات تقول : إنّه أمات الموت أم أنّ الموت خاف منه (أي من المتنبي)، وهذه النفس يريد الشاعر إهلاكها ، وقد استقرّ في أعماقه إيمان مطلق أنّ للإنسان عمراً محدّداً، وهكذا يكون المتنبي في مثل هذه المقدّمات قد حقّق إبداعاً شعريّاً وفنيّاً جعل من مقدّمة القصيدة العربية هادفة وفاعلة في حركة التطور والتجديد الذي لحق بالشعر العربي عبر العصور من جهة ، وجعلها أيضاً معبّرة عن طموح نفسه ذلك الطموح الذي لا يجد ولا يعرف له نهاية؛ لأنه دائم الطموح.

ب . المقدّمات الغزليّة:

صحيح أنّ المتنبي عُرف بطموحه الذي شغله عن الغزل وعن الحديث مع النساء وصحيح أنّه قال:

---

[1] ينظر: د. طه حسين ، مع المتنبي ، ص 145 ، وانظر : د. مصطفى ناصف : دراسة في الأدب العربي ، دار الأندلس ، 1981 ، ص135

[2] ينظر:د. حسين عطوان ، مقدّمة القصيدة العربيّة في العصر العبّاسي الثاني ، ص 307 ، وانظر : د. عزّ الدين إسماعيل : في الأدب العبّاسي ، دار النهضة ، بيروت ، 1975 ، ص 392 .

[3] الديوان ، 149/148/2 .

وللخود مني ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تجاب
وما العشق إلا غرة وطماعة يعرض قلبٌ نفسه فتصاب[1]

إلّا أنّه أفرغ طاقة كبيرة من قلبه في بعض مقدّمات قصائده حتى بلغ درجةً من الحبّ لا يفوقه كثير من أصحاب الغزل العفيف ، أليس هو القائل :

أصخرة أنا ؟ مالي لا تغيرني هذي المدام وهذي الأغاريد؟ [2]

فهو الشاعر صاحب الإحساس المرهف والذوق الرفيع ، ونستطيع أن تقول :إنّ حبّ المتنبي عظيم بعظمة عقله وشعره وكما أنّ شعره شغل الناس ، فإنّ حبّه وعاطفته أدخلت الإنسان إلى عالم آخر من عوالم الحب والشوق والغزل بطعم جديد وصور إبداعية جديدة رائعة ، ويقول في مدح سيف الدولة ويذكر استنفاذه أبا وائل تغلب بن داود من الأسر:

إلام طماعيّة العاذل ولا رأي في الحبّ للعاقل
يراد من القلب نسيانكم ويأبى الطباع على الناقل
وإني لأعشق من عشقكم نحولي وكل امرئٍ ناحل
ولو زلتم ثمّ لم أبككم بكيت على حبّي الزائل
أينكر خدّي دموعي وقد جرت منه في مسلك سابل
أأوّل دمعٍ جرى فوقه وأوّل حزن على راحل
وهبت السلو لمن لامني وبثُّ من الشوق في شاغل
كأنّ الجفون على مقلتي ثيابٌ شققن على ثاكل [3]

فهو يريد أن يقول : إلى متى يطمع العاذل في استماعي كلامه ؟ والحبّ يقع اضطراراً لا اختياراً ، والعاقل لا يقع في شرك الحب باختياره (فلا معنى للوم فيه)، لأنّ المحبّ مغلوب على أمره فلا فائدة في لومه ، وإنّ العاذل يريد من قلبي أن يسلاكم ، وقد جرى حبّكم فيه مجرى الطبيعة وحلّ فيه محلّ الخليقة، والطبيعة لا تنقاد لناقلها ، ولا تتأتى لمخالفها ، ثمّ إنّه يعشق نحول جسمه ، ويأنس باتّصال سقمه ويعشق كلّ ناحية لمشابهته إيّاه في حالي ، فصار يعشق نحوله لأنّ عشق الأحبّة أدّى إلى ذلك ، فهو يحبّ أحبّته ويحبّ حبّهم حتى لو ذهب الحبّ عنه لبكى على فراقهم ولو أنّه لم يبكِ على فراقهم سلواً عنهم ، لبكى على ما فات من حبّه لهم استغباطاً لذلك الحبّ فيهم واستعذاباً لما لاقاه من ذلك الحبّ ، وفي قوله : " ولو زلتم " وبالزائل" في آخر البيت الرابع نوع بديع عرف في الشعر بالضدّين، ممّا زاد على المعنى جمالاً إبداعيّاً أعطى المقدمة في القصيدة العربية في تاريخ الشعر العربي ، ولعلّك تلاحظ الصورة الأجمل في البيت الأخير حيث يقول إنّ الجفون كأنّها شققت على مقلتي ، شبّه مقلتيه في حزنهما بتلك الثاكل في وجدها ، وتبعيد

[1] **الديوان 1/ 192 .**
[2] **الديوان 40/2 .**
[3] **الديوان 23/22/21/3 .**

السهر لما بين جفونها بتشقيق الثاكل الثياب حداداً ، وهذا مما شبّه فيه شيئين بشيئين وهو من أرفع وجوه البديع.

وقال في مقدمة قصيدة يمدح فيها عبد الواحد بن العباس بن أبي الأصبع الكاتب:

أركائب الأحباب إنّالأدمعا تطسُ الخدود كما تطسن اليرمعا [1]

فاعرفن من حملت عليكن النوى وامشين هوناً في الأزمّة خُضّعا

قد كان يمنعني الحياء من البكا فاليوم يمنعه البكا أن يمنعا

تّى كأنّ لكلّ عظم رنّة في جلده ولكلّ عرقٍ مدمعا

وكفى بمن فضح الجداية فاضحاً لمحبّه وبمصرعي ذا مصرعا

سفرت وبرقعها الحياء بصفرة سترت محاسنها ولم تك برقعا

فكأنّها والدمع يقطر فوقها ذهب بسمطي لؤلؤ قد رصّعا

كشفت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالي أربعا

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقتٍ معا [32]

[4]

وهنا تشعر كأنّ المتنبي استند إلى ما عرف في الشعر العربي القديم من ذكر الظعائن ورحيل الأحبّة ، وما إلى ذلك من وصف لمشاعره تجاه سير الأحبة وما يتعلّق به من هجران وفراق إلا أنّه استند إليه لينهض به من جديد، وكأنّ قلبه يضخّ بالتراث وعقله يفكّر بمستجدات العصر من تطوّرات حضارية وفكرية إنسانية ممّا جعل من مقدمة القصيدة عنده لوناً آخر أضاف إلى نسيج القصيدة العربية لوناً مزخرفاً وإلى الذوق الفنّي العربي طعماً آخر أسكر الشعراء والفنانين معاً ، ألا يلاحظ الدارس والقارئ ما رسمه المتنبي في البيتين السادس والسابع " سفرت وبرقعها الحياء بصفرة " و" فكأنّها والدمع يقطر فوقها " ؟ ذلك الرسم الذي جعل صورة الفتاة المحبوبة المتخيّلة أمام القارئ والدارس أنّ الفتاة كشفت عن وجهها إلّا أنّ صفرة الوجل من أهلها وذويها الموجودين معها أثناء الرحيل كانت بمثابة النقاب الذي تضعه المرأة على جبينها وحواجبها ووجهها ودون العينين ، هذه الصفرة هي التي خبّأت حسنها وجمالها ثم ذرفت دموعها لؤلؤاً يرصّع وجنتيها الجميلتين الذهبيتين ، كلّ هذا بفعل إخراج المتنبي لهذه الصورة الجميلة حيث أبدع في ترصيع المقدمة في قصيدته الشعرية ، وليس مقصوراً على ذلك فقط بل تلوّنت صورة الفتاة بتلوين آخر وهو لون شعرها الجميل البادي من ثلاث ذوائب وسواد الليلة التي هو فيها ، فغدت أمامه أربع ليال برسم إبداعي قلّ نظيره في الشعر العربي من قبل ومن بعد ، وقد أبدع المتنبي في الصورة الفنية الإبداعية بقوله :

واستقبلت قمر السّماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معاً

قد تقول : الصّورة مألوفة وموجودة من أنّ وجهها يشبه القمر والقمر الموجود في السماء قمر آخر ، فتقابل وجهها والقمر السماوي ولكنّ الصورة أعمق من ذلك وفيها إبداع أكثر من ذلك فليس من المعقول أن تكون صورة المتنبي بدائية ساذجة إلى هذا الحد حيث يستطيع أن يركّب هذه الصورة أي إنسان بسيط ، إلا أنّ المتنبي وقف أمام

[1] تطسّ : تدقّ ، الوطس : الدقّ ، اليرمع : حجارة بيض صغار رخوة .

[2] الديوان 259/2

مشهد آخر فرسمه بطريقة إبداعية استفاد من الطاقة اللّغوية التي تتمتّع بها اللغة العربية ، وهي أنّ اللغة العربية تجيز باب التغليب ؛ والتغليب أن يغلّب اسم على آخر يكونان متقاربين في اللفظ أو العصر ، مثلاً تقول / العُمرين / أي أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما)وتقول أيضاً /الحسنين/ أي : الحسن والحسين عليهما السلام ، و/القمرين/ أي الشمس والقمر ، ولذلك جاء المتنبي بهذه الصورة بقوله : / فأرتني القمرين في وقتٍ معاً / أي أصبح وجه حبيبته شمساً ، والقمر الموجود في السماء ، فتقابل الشمس والقمر في وقت واحدٍ وهذا الوقت هو الليل لأنّ القمر موجود فيه والحديث كلّه في الليل / كما أشار في البيتين السابقين / وهنا تكمن إبداعية المتنبي في استحضار صورة الشمس والقمر فنّياً لم يسبقه في تكوين صورة جميلة قل نظيرها في الشعر العربي من حيث استخدام باب التغليب في اللغة إليها شاعر آخر / فيما نحسب / من حيثُ استخدام /باب التغليب/ في اللغة في تكوين صورة جميلة قل نظيرها في الشعر العربيّ.

ج . المقدّمات الاجتماعيّة :

عاش المتنبي في بيئة اجتماعية مليئة بالتناقضات المتعدّدة حيث قلّ الوفاء بين الناس وكثر الالتفاف إلى الدين والتصوّف ثم نجد انحسار المحبة وتراجعها بين أفراد المجتمع ممّا عكس ذلك في شعر المتنبي حيث راح في بعض مقدّماته الشعرية يصوّر ذلك الواقع ويعلي صوته بالنقد لما آل إليه المجتمع لعلّه يجد آذاناً صاغيةً وصدوراً واعية فقال:

ملومكما يجلّ عن الملام	ووقع فعاله فوق الكلام
ولا أمسي لأهل البخل ضيفاً	وليس قرىً سوى فخ النعام
فلمّا صار ودّ الناس خبّاً	جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشكّ فيمن أصطفيه	لعلمي أنّه بعض الأنام
وآنف من أخي لأبي وأمّي	إذا ما لم أجده من الكرام
ولست بقانع من كلّ فضلٍ	بأن أعزى إلى جدّ همام
ولم أر في عيوب الناس شيئاً	كنقص القادرين على التمام [1]

فها هو المتنبي لم يعد يثق بمودّة الناس لأنّ المكر والخداع أصبح من صفاتهم، فصار يبتسم لمن يبتسم له على الرغم من مقتهلهذا الأسلوب وكرهه له، إلّا أنّه يشمخ شموخ الأبي المعروف بأصالته فيرفض أخاه أقرب الناس إليه إن لم يكن كريماً أصيلاً في تعامله ثم يستغرب حتى العجب والدهش من الذي يكون قادراً على إكمال الفضل ولا يكمله، أي لا عذر له في ترك الكمال إذا قدر على ذلك والمتنبي لا يقنع من الفضل بأن ينسب إلى جدّ فاضل إذا لم يكن فاضلاً بنفسه ، وبهذه المقدّمة تجد المتنبي يتّجه إلى نقد المجتمع وأهله نقداً موجعاً ، والأخصّ بالنقد أولئك الذين تحوّلوا عن أصولهم الطيّبة وبدّلوا كرمهم بخلاً وبدّلوا إباءهم ذلّاً ، وما أحسبك تنسى الصورة التي قدّمها المتنبي في قوله:

ولا أُمسى لأهل البخل ضيفاً وليس قرى سوى فخّ النعام

لا يكون ضيفاً على البخيل حيث البخيل لا يقدم الطعام ولاتجد عنده كرماً ، كما أنّ النّعام تخلو من المخّ وهي مضرب المثل في الخوف والجبن ، ولا أبشع من صورة تشبه بالنعام خوفاً وجبناً حيث تضع رأسها في الرمال معتقدةً أنّها تخبئ نفسها من عدوها على حين أنّ جسمها ظاهر على الرغم من ضخامته لا يخفى على أحد ، ويقول أيضاً في مقدّمة قصيدة أخرى يمدح بها سيف الدولة:

[1] **الديوان : 144/2 .**

غيري بأكثر هذا النّاس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدّثوا شجعوا
أهل الحفيظة إلّا أن تجبر بهم وفي التجارب بعد الغي ما يزعُ
وما الحياة ونفسي بعدما علمت أنّ الحياة كما لا تشتهي طبعُ
ليس الجمال لوجهٍ صحّ مارنه أنف العزيز بقطع العز يجتدع [1]
أأطرح المجد عن كتفي وأطلبه وأترك الغيث في غمدي وأنتجع؟ [2]

فهو يصوّر الخداع الذي غدا متفشّياً بين الناس ، والناس اسم من أسماء الجموع عبّر عنه بإشارة الواحد على اللفظ لا على المعنى ، ولو أراد المعنى لقال هؤلاء ، إذ يقولون ما لا يفعلون ، فبالكلام هم شجعان وفي الحقيقة جبناء مخادعون منافقون ، ولذلك التجربة أكبر برهان لصدق الناس . ولعلّنا نلاحظ أنّ المتنبي في مقدّماته الاجتماعية ينشغل بالعقل عن الفنّ ، فلا يهتم بصياغة الصور الفنّية عن تفسير الواقع الاجتماعي الذي يعانيه أو الذي يراه ، فالمجتمع وعلاقاته وتفسيرها يحتاج إلى تفسير عقليّ منطقيّ لا إلى خيال فنّي ، وهذا لا يعني أنّ الخيال والفنّ قد انعدم عنده من المقدّمات الاجتماعية إلّا أنّ العقل انشغل بالفنّ أكثر من انشغاله بالتفسير والتحليل الواقعي في المجتمع فقوله (ليس الجمال لوجه صحّ مارنه)..... دليل على تركيب الصورة تركيباً عقلياً حيث يريد أن يقول:أنف العزيز يجتدع بزوال العّز فيه فإذا قطع عزّه فكأنّه في الحقيقة قد جدع أنفه وإن كان أنفه صحيحاً .

د – مقدّمات الحكمة:

ومن مقدمات المتنبي مقدمة الحكمة، وقدتنطوي قصائد المتنبي على حكمة عظيمة تفيد إنساناً في حياته الاجتماعيّة واليوميّة ، ولا تكون الحكمة حكمة إلّا إذا كانت نابعةً من تجربة حيّة أو من عبرة مرّت على مدى الزمن والتاريخ ، فالمتنبي خبر الحياة حلوها ومرّها وشرّها ، وراح يفسّرها تفسيراً مشبعاً بالفكر والفنّ والذوق حتى ارتقى بالقصيدة العربية إلى درجة عالية في الشعر حيث أكسب الشعر فائدة وهي ذكر الناس لحكمة عبر تجاربهم بموعظة أو بتأييد معنى من المعاني المنطقيّة والفلسفية ، حيث يقول في مقدّمة قصيدة يمدح بها كافوراً:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا
تمنّيتها لما تمنّيت أن ترى صديقاً فأعيا أو عدوّاً مداجيا
إذا كنت ترضى أن تعيش بذلّةٍ لا تستعدّنَّ الحسام اليمانيا
ما ينفع الأسدَ الحياءُ من الطوى لا تُتقّى حتّى تكون ضواريا
حببتك قلبي قبل حبّك من نأى وقد كان غدّاراً فكن لي وافيا
إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى فلا الحمدُ مكسوباً ولا المال باقيا
وللنّفس أخلاقٌ تدلّ على الفتى كان سخاءً ما أتى أم تساخيا [3]

[1] **المازن : مقدّم الأنف ، وهو مالان منه .**
[2] **الديوان : 221/2 .**
[3] **الديوان : 281/4**

المقدّمة في قصيدة المتنبي تثير انتباهاً غريباً من حيث المعنى وتأدية الإحساس النّفسي الفني والجمالي عند المتلقّي ، فهي تنبّه عقله وإحساسه إلى ضرورة معرفة الحياة ومعرفة المجتمع والناس من خلال التجربة الإنسانية ، ولعلّ هذه التجربة التي يعكسها المتنبي في شعره هي سرّ جماله وديمومة الشعور والإحساس به عبر العصور والتاريخ، وقد فطن ابن رشيق إلى ذلك منذ القديم حيث يشير إلى أنّ المتنبي أربى على كلّ شاعر في جودة هذه الأمور الثلاثة ، المطلع والتخلّص والخاتمة ، وما جاء في شعره خلاف ذلك لا يدلّ على الطابع العام للشاعر ، ولكنّه نتيجة لرغبة المتنبي في الإغراب على الناس ثقة منه بنفسه وإدلالاً منه بفنّه [1]، وفي هذه المقدّمات نجد الخبرة الشعرية والفنّية المعبرة عن إبداع إنساني ، ولعلّ هذا ما جعل المتنبي يحظى عند سيف الدولة الأمير فروسيّةً وشاعريّةً وذوقاً رفيعاً ، الحظوة الفريدة من سائر العلماء والشعراء وغيرهم [2] ، فأنت عندما تقرأ مقدّمة القصيدة السابقة تشعر كأنّك أمام إنسان كأنّه جبل في عقله ومركز للإشعاع الفكري في حكمته ومواعظه ، إذ إنّ أخلاق المرء تدلّ عليه أكان ذلك من سجيّته أم من غيرها بل ليتظاهر بها أمام الآخرين ، ثم إذا كان الإنسان يرضى بالذلّ فلماذا يعدّ العدة من سلاح وغيره للقتال؟ والأسود الخجولة لا ينفعها خجلها بالقضاء على جوعها ، وكذلك الإنسان الخجول لا ينفعه خجله، بل عليه أن يعمل ويتحرّك من أجل حياته ومستقبله ، وغير خفي على دارس متمرّس ما حقّقه الإيقاع الموسيقي الحاصل في القافية ، إذ إنّ القافية تاج الإيقاع الموسيقي في القصيدة الشعرية ، وممّا قاله المتنبي في مقدمات قصائده حكمة وموعظة قوله يمدح محمّد بن سيّار بن مكرم التميمي:

أقلُّ فعالي بله أكثره مجدُ ... وذا الجدّ فيه نلتُ أم لم أنل جدُّ

سأطلب حقّي بالقنا ومشايخ ... كأنّهم من طول ما التثموا مرد

ثقالٍ إذا لاقوا خفاف إذا دعوا ... كثيرٍ إذا شدّوا قليلٍ إذا عدوا

أذمّ إلى هذا الزمان أهيله ... فأعلمهم فدمٌ وأحزمهم وغد [3]

وأكرمهم كلبٌ وأبصرهم عمٍ ... وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى ... عدوّاً له ما من صداقته بدّ [4]

المتنبي هنا يقدّم حكمة تتجسّد فيها كثير من العلاقات الاجتماعيّة والثبات في الموقف والالتزام به بقوّة وحزم ، وهذه الحكمة تقوم على الجد والاجتهاد في طلب المجد والعزّ ، ثم ينتقل لنقد المجتمع بحكمة ورويّة حيث يقول :

أذمّ إلى هذا الزمان أهيله ... فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد [5]

ينقد المجتمع بحرقة وألم لأنّ العالم فيه الغبي والحازم (فيه : أي المجتمع) ولئيم ضعيف ، فما بالك بالجاهل والجبان ؟ ثمّ يأتي بأمثال مشهورة ، يقال : أنوم من فهد ، ويقال : إنّ القرد يضرب به المثل بالجبن فهو لا ينام إلّا في كفّه لشدّة الفزع . ولا ينام الليل حتّى يجتمع إليه كثير، ويأتي البيت الأخير من الأبيات السابقة تاجاً للحكمة في

---

[1] العمدة ، ابن رشيق ، محمد الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط 1972 ، 239/1 ، وانظر : حسام زاده الرومي : رسالة في قلب كافوريّات المتنبي ، ص 35 .

[2] محمد عبد الرحمن شعيب : المتنبي بين ناقديه ، مصر ، 1964 ، ص 22 .

[3] القدم : الغبي من الرجال ، الوغد : اللئيم الضعيف .

[4] الديوان: 373/1

[5] الديوان : 2/ 259

قصيدته الشعرية بل تاجاً لكلّ حكمة تقوم على علاقات اجتماعية متناقضة حيث لا يجد الشريف مندوحةً في حياته إلّا في معاشرة عدوّه ، وهذه محنة ما بعدها محنة ، لذلك يعيش الحرّ الشريف حياة النكد والعذاب تجاه معاشرة العدو وهو مكره على ذلك .

وعلى أية حال فإنّ مقدمات القصائد عند المتنبي تبلغ أهمية عالية في الإبداع ، وقد التفت النقاد القدامى إلى ذلك ، حيث قالوا في مطلع القصيدة : " أوّل ما يقرع الأذن ويصافح الذهن " [1] فلا شكّ في أنّ مقدمة القصيدة عند المتنبي تشكل روائع فنية في لوحات انفعاليّة لأحاسيس ومشاعر إنسانيّة خلّاقة ، " وإنّها فيض تلقائي تفيض به نفس الشاعر متخطّية العادات والتقاليد محطة السجف والحجب قبل أن تبدأ في العودة إلى نقطة الهدوء" [2] ، فهي تجربة إبداعيّة إنسانية زخرفت الشعر العربي بالفنّ والفكر ممّا جعل الشعر العربي متطوّراً متجدّداً عبر التاريخ .

المصادر والمراجع:

1. ابن رشيق ، **العمدة** ، دار الجيل ، بيروت ، ط4 ، 1972 م.

2.المتنبي، أبو الطيّب ، **الديوان** ، شرح الكعبري ، تحقيق : مصطفى السقّا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، 1978.

3.الثعالبي، أبو منصور ، **يتيمة الدهر** ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط2 ،القاهرة ، 1956 .

4. الرومي حسام زاده: **رسالة في قلب كافوريّات المتنبي** ، تحقيق محمّد يوسف نجم ، دار الأمانة ، ط1 ، 1972 .

5. د. عطوان ،حسين ، **مقدّمة القصيدة العربيّة في العصر العبّاسي الثاني**، دار الجيل، بيروت، 1982م.

6. د. حسين طه ، **مع المتنبي** ، دار المعارف ، مصر ، ط11 ، بلا تاريخ .

7. ضيف شوقي: **الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي** ، دار المعارف ، مصر ، ط10 .

8. د. نافع عبد الفتّاح ، **لغة الحبّ في شعر المتنبي** ، دار الفكر ، عمّان ، ط1 ، 1983 .

9. د. إسماعيل عزّ الدين: **في الأدب العبّاسي** – رؤية وفنّ ، دار النهضة ، بيروت ، 1975.

10. د. العشماوي محمد زكي: **موقف الشعر من الفنّ والحياة في العصر العبّاسي** ، دار النهضة ، بيروت ، 1981.

11. شرارة محمد ، **المتنبي بين البطولة والاغتراب** ، جمع وتحقيق : حياة شرارة ، بيروت ، ط1 ، 1981.

12. شعيب ،محمد عبد الرحمن: **المتنبي بين ناقديه** ، دار المعارف ، مصر ، 1964.

13. د. ناصف ،مصطفى: **دراسة في الأدب العربي** ، دار الأندلس ، 1981.

[1] **أبو منصور الثعالبي ، يتيمة الدهر ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط 2 ، 1956 ، 1/ 161 .**

[2] **د. عبد الفتّاح نافع ، لغة الحبّ في شعر المتنبي ، دار الفكر ، عمّان ، ط 1 ، 1983 ، ص 256 .**